قصــة قصــيرة

بقلم معاوية محمد الدرهلي

مخطوطة للبيع

من وحـي « سوق الـدير » في مدينـة يافـا

ο ○ ο

وقف الحاج ابراهيم علـى الرصيف المقابل لمخزن الشيخ يعقـوب مترددا كالطفـل المهـذب تتقاسمـه عاطفتان . رغبة في القاء النظر للمرة الثلاثين على واجهة المخزن ليرى هل ما علقت به نفسه ما زال موجـودا فيها لم تختطفه يد غيره ، وخوف من ان يتبين الشيخ يعقوب مبلغ حرصه على اقتناء تلك المخطوطة فيغالي فـي رفع الثمن ، مع انه كان يشعر فـي قرارة نفسه ان الشيخ يعقوب يعلم سره وانه انما يحاوره محاورة القط للفار قبل ان يقع اخيرا في قبضـة مخالبه القوية الماهرة مع انها بلغـت الستين من عمرها او يزيد . ومـد الحاج ابراهيم احدى قدميه اللتـين حملتا جسمه الطويل القوي خمسين عاما دون شكوى او احتجاج ووضعها على الطريق الفاصل بينه وبين المخزن وفي تلك اللحظة التفت سليمان الى ابيه يعقوب في المخزن وقال :

ــ ابي ، اني ارى الحاج ابراهيم يتقدم نحونا .

فقال ابوه محذرا : « احترس . لا تشعره انك تراقبه . ابتعد عـن الواجهة ولكن راقبه من طرف خفي. اني احس انه الان وبعد ثلاثة اشهـر من التردد قد نضج وقـر قراره . ولكن حذار من ان يراك . فهذا سر المهنة يا ابني . لا تظهر لعميلك انـك ملنهف للبيع كتلهفه للشراء . ولكن اخبرني اين وصل الحاج ؟ »

ــ انه ما زال يعبر الطريق ولكنـه يسير ببطء شديد . لقد اقترب الان وها هو يضع قدمه اليمنى علـى الرصيف ... ولكن ... لقد توقف عن السير . ان قدمه على الرصيف ولكنه واقف لا يتحرك . لقد اخـرج نظارتيه وها هو يضعهما على عينيه . لقد مال بجسمه الى الامام . ولكـن اظن يا ابي انه رآني فانه يسير مبتعدا عنا في اتجاه المقهى . وهو يسـير بسرعة . لقد اختفى . »

وصاح الشيخ يعقوب : « الم اقل لك احترس لئلا يراك ؟ لقد افقدت علي الصفقة . متى ستتعلم سـر البيع والشراء ؟ الست ابني ؟ لم لم ترث عني القدرة على التصرف ؟ الا يهمك هذا الموضوع ؟ »

ثم سكت فجأة ووضع يده على قلبه . لقد آلمه هياجه واحتدام غضبه وهو ما نهاه عنه الطبيب لضعف قلبه ولكنه قلما يذكر ذلك الا بعد فـوات الوقت ... ومرت فترة طويلة مـن الصمت بين الاب وابنـه . وجلس الشيخ يعقوب علـى كرسـي مـن الخيزران في زاوية من المخزن بينما بقي ابنه واقفا . لقد كان هو ايضـا يشعر بالحنق ولـكن غضبا على ابيه الذي ما زال يعامله معاملةالصبي ناسيا انه الان شاب متزوج يستطيع لو شاء ان يترك العمل معه في المخزن وان يجد لنفسه عملا تجاريا اخر يلقـى هوى في نفسه ، فيه حركة ونشاط واختلاط بالناس بدلا من حياة تكاد تكون في معزل عنهم . فمن مـن الناس يشتري المخطوطات القديمـة في هذه الايام سوى الحاج ابراهيـم وقلة مثله يدفعون لقاءها مبالـغ عظيمة لا يقدر عليها الا هم وغيرهم من كبار الاغنياء ؟... ولكن هل يمكنه ان يترك اباه حقا حتى ولو سمح لـه بذلك ؟ ونظر الى ابيه وهو جالس مغمض العينين في كرسيه وقـد انزلقت لفته الى الوراء قليلا فبان جبين هذا الشيخ الوقور عريضـا وضاءا بالذكاء بينما انامله تلعب بلحيته الناصعة البياض وكأنما تعد السنين بعدد العشرات . وتذكر مسؤوليتـه العظيمة نحو ابيه وشعر بحب وحنان لم يعهدهما في نفسه من قبل فاقترب من ابيه :

ــ ابي . هل احضر لك كوبا مـن الماء ؟

ــ ماذا ؟ آه . لا لا شكرا يا ابني. شكرا .

وبعد قليل اضاف : « سليمان . لقد قسوت عليك في الكلام يا ابني ولكنك تعلم اني ما قصدت ممـا قلت شيئا . غير ان امثال الحـاج ابراهيم قليلون وهو من احسـن عملائي . بل يمكنني ان اقول انني انا الذي كونت مكتبته القيمة . ثم انها قيمة فقد اشترى معظم كتبـه مني . اتعلم انه يملك المخطوطـة الوحيدة للكتاب « الملل والنحل ؟ » انا الذي وجدتها له عند احد الشيوخ في القدس وكان هذا الشيخ رحمه الله من اصدقائي منذ ان كنا نتذاكـر الدروس في الازهر الشريف معا ولكنه كان يفضل الكتب المطبوعـة علـى المخطوطات ويقول انها اسهـل للقراءة ربما ... ربما ... ولكن اي جمال يعادل جمال مخطوطة قديمة مذهبة ومكتوبة بخط واضح متناسق . تعال انظر الى بعضها . هذه مخطوطـة قديمة لكتاب احياء علوم الدين للغزالي انها اقدم مني ومنك . اتعلـم ان عمرها ثلاثمائة عام .. اي خمسـة اضعاف عمري ومنسوخـة عـن مخطوطة بخط الامام نفسه . انني اشعر بهيبة العلم ووقار الدين كلما المسها . امسكها يا ابني . امسكها . الا ترى الامام نفسه ماثلا امامك بكل وقاره وروعه . وهذه المخطوطة التي سلبت لب صاحبنا الحاج ابراهيم . هاتها . تفحصها جيدا . انظر الـى العنوان مكتوبا بالخط الثلثي الجميل « كتاب النجاة » لابن سينا غفر الله له . اما النص فبالخط الفارسـي . اترى الحكمة في ذلك ؟ المخطوطـات انسان حي ناطق يحدثك عبرالسنين وهذه المخطوطة قديمة جدا ولذلـك يحرص الحاج ابراهيم على اقتنائهـا لتزدان بها مكتبته . انه خبير ذو ذوق يعرف الشيء الجيد متـى راه » . وهنا قهقه الشيخ عاليا « لا تخف يا ابني لا تخف . ان الحاج ابراهيم لن يفلت من سحرها . لقد راودته عـن نفسه اكثر من ثلاثة اشهر وسيرجع لشرائها دون ريب . وسيزورنا مرة ثانية وثالثة دون تردد . »

وهنا قال سليمان « ولكن لقـد جاء شخص اخر لا اعرفه يستفهم عن هذه المخطوطة بالذات وعن ثمنها . »

وعاد الغضب الـى الشيخ يعقوب « وماذا قلت له . هل ذكرت الثمن ؟»

ـ « نعم قلت انها بمائة جنيه . ولكن هذا مبلغ كبير يا ابي . لا يمكن لاحد ان يدفعه . »

ـ « أهذا ما قاله زبونك الذي لا تعرفه ؟ »

ـ « نعم . لقد استكثر الثمن . »

ـ « الحمد لله . انني لا اريد ان يشتريها احد الا الحاج ابراهيم . لا تنس انه صديقي قبل ان يكون عميلي . ولكنه لن يشتريها الا بالثمن الذي اريد انا : خمسة وسبعين جنيها وسيدفع الثمن . سترى . »

* * *

اما الحاج ابراهيم فما ان ابتعد بضع خطوات عن المخزن حتى سولت له نفسه الرجوع مرة اخرى بحجة ان يصاحب الشيخ يعقوب الى الجامع لتأدية الصلاة . ولكنه رجع عن تلك الفكره لتأكده انه سيلتقي بالشيخ في الجامع على اية حال وسيصطحبه الشيخ يعقوب معه كالمعتاد بعد تادية الصلاه . وقرر لذلك ان يتجول في السوق الذي يملك اكثر من نصفه ويتحدث الى أصحاب المحلات الذين استاجروا منه . واخذ يتنقل من دكان الى دكان ومن زاوية الى زاوية يحدث هذا ويحيي ذلك دون ان يشعر باية رغبة في اطالة الحديث مع اي منهم . وحضرت في ذهنه جملة قالها له الشيخ يعوب مرة « انا وانت ننتمي الى المدرسة القديمة يا حاج . كجزيرتين قديمتين يحيط بهما بحر المدنية العصرية . واكثر ما اخاف ان يغمرنا البحر في اعماقه فيخفينا كلية حتى من ذاكرة التاريخ كان ما نمثله انا وانت لم يكن قط . » واخذ الحاج ابراهيم يستعرض في ذهنه مراحل التغير التي طرات على السوق . لقد ذهب حلاقو الرصيف ومراياهم الصغيرة المعلقة على الجدار واستبدلوا بصالونات عصرية مثل صالون رمضان الذي يقص عنده شعره وهو جالس على كرسي منجد تروح عنه منشة متدلية من السقف يحركها « الصبي » بالحبل . وهو لا يزال يذكر الحصر تعرض للبيع على ارصفة السوق . ولكنها اختفت الان وقامت محلها مخازن تؤوي السجاجيد العجمية . واختفت او كادت عربات اليد تصطف عليها اكواز الماء الفخار وقرب الخزف لم تبق منها الا واحدة او اثنتان لا تستطيعان مقاومة المنافسة من حوانيت الصيني والزجاج . وبينما هو يفكر في ذلك اذ مر بدكان مسعود في الطرف الغربي من السوق وشعر بوخز الضمير . فقد كان الدكان لبيع الكتب الحديثة النظيفة ذات الورق المصقول والغلاف الملون البراق ـ معروضة عرضا انيقا في « المكتبة الجديدة » التي اتخذت هذا الاسم نكاية بمخزن الشيخ يعقوب . وراى الحاج ابراهيم عددا من الشباب يقلبون الكتب ويتصفحونها في المكتبة بينما لم يكن قد راى احدا عند الشيخ يعقوب . ترى هل تقع المسؤولية عن ذلك على كتفيه ايضا . لقد قال له الشيخ يعقوب فيما قال له « حتى انت يا حاج ابراهيم قد خذلتني . انك تملك نصف السوق وكان باستطاعتك لو رغبت ان تصد التيار المكتسح لحياتنا القديمة المأثورة . ولكن روح التاجر فيك تغلبت عليك. سامحك الله » وفجاة شعر الحاج ابراهيم بشيء من الوحدة ووجد نفسه مشتاقا للاجتماع بصديقه الشيخ . لعل الشيخ يعقوب مصيب في قوله انهما جزيرتان غريبتان في بحر جديد ام لعلهما نخلتان غريبتان عند غدير منسي في الصحراء . ولم يرض الحاج ابراهيم عن اي من التشبيهين الى ان اهتدى الى تشبيه جديد . انهما كالشمعة وفتيلتها لا كيان للواحدة دون الاخرى تنيران معا وتحترقان معا . واذا به يحث الخطى الى الجامع ... لقد سمع الاذان وسيقابل الشيخ يعقوب بعد الصلاة .

* * *

كانت الحركة قد هدات في الشوارع عندما رجع الشيخ يعقوب والحاج ابراهيم من الجامع . وحتى المقهى القريب من المخزن كان خاليا من الزبائن ما عدا واحدا او اثنين كانا نصف نائمين في احد الزوايا بينما كان صاحب المقهى يغط في نومه بالقرب من الوجاق . لقد ذهب معظم الناس الى بيوتهم للغداء والقيلولة . ولما كان الحاج ابراهيم يعيش بمفرده لا اسرة له فقد تقبل كالمعتاد دعوة الشيخ لتناول الغداء معه في الغرفة الخلفية للمخزن . وبعد تناول الغداء ما لبثا ان شعرا بثقل الطعام يثقل جفونهما فاستسلما للنوم كل في كرسيه بينما نهض سليمان الى غرفة المخزن الامامية يستريح على الكنبة وينتظر . ولكنه لم يستطع مدافعة قوى النعاس فاستغرق هو ايضا في نوم عميق لم يفق منه الا على ذكر اسمه يدور على لسان العجوزين . كان الحاج ابراهيم يقول :

ـ « ولماذا لم ترسل سليمان الى الازهر مثلك يا شيخ ؟ »

فكان جواب الشيخ يعقوب « ولماذا ارسله الى الازهر وقد امنت له مستقبله في هذا الدكان . فانه سيرث كل ما املك وستكون هذه المخطوطات له يبيعها كما يشاء . ثم انه يحب التجارة والبيع والشراء واظن ان مستقبله بهذا اضمن » .

وعندئذ قرر سليمان ان يشعرهما بانه قد استيقظ فكفا عن التحدث عنه ونهض الحاج ابراهيم قائلا : علي ان اذهب الان لقضاء بعض الامور ولكني سأراك في « قهوة المدفع » هذا المساء احب ان أعرفك على صديق سيجيء من الرملة بعد ظهر اليوم . انه من خريجي دار العلوم وهو عالم فاضل احب أن تقابله . »

ولم ينتظر جواب الشيخ يعقوب بل فتح باب المخزن وكان على وشك الخروج حين قال :

ـ « على فكرة . ارى ان لا احد قد اقدم على شراء مخطوطة ابن سينا اذا وجدت صعوبة في بيعها فقد اشتريها منك مع ان عندي نسخة مطبوعة منها » .

ولم يمهله الشيخ يعقوب بل قال : » ساريها لصديقك هذا المساء ، فقد تعجبه . الم تقل انه من العلماء الافاضل ؟ اذن سيقدر قيمتها حق قدرها . قل لي ما اسمه ؟ «

واسقط في يد الحاج ابراهيم ولكنه اجاب « لا اظن انه من المهتمين بجمع المخطوطات ، ثم ان الفلسفة ليست من اختصاصه فهو لغوي يجمع كتب فقه اللغة . على كل ساخبره بما لديك . قل لي يا شيخ كم تطلب ثمن هذه المخطوطة ؟ »

ـ « مائة جنية » ، اجاب الشيخ يعقوب ببطء ودون اكتراث .

واحتد الحاج ابراهيم « ولكنك قلت لي اخر مرة انها بخمسة وسبعين جنيها » . فقال الشيخ « ولكني لم

اعلم يا حاج انك تنوي شراءها . هذا هو الثمن الذي كلفني شراؤها اصلا. ولكن اذا كنت ترغب انت في اقتنائها فهي لك بلا مقابل يا حاج . »

واخذ سليمان يراقب هذين العجوزين الماكرين وهو يضحك في سره . ما اكثر ما شاهد هذا الفصل يتكرر بينهما دون ان يتحول اي منهما قيد انملة عن موقفه . ترى هل بلغ بهما خداع النفس الى حد التصديق ؟ ام انها لعبة يلعبانها لمجرد التسلية ؟ ام ترى هل اصبحت هذه المخطوطة الرباط الوثيق الذي يربطهما كحبل النجاة ينقذهما من الغرق حتى اصبحا يخشيان ان ينقطع اذا انهيا صفقة البيع والشراء بينهما فيفرقا معا ؟ ما اعجب تصرفات الشيوخ المتقدمين في السن وما اقوى اواصر الترابط بينهم . وكأن هذا الارتباط هو البقية الباقية من الحياة التي تجعل للحياة طعما ومعنى عندهم . ان كلا من هذين العجوزين يتشبث بالاخر ولا يريد ان يفلته او ان يفلت الاخر منه دون ان يعلما ان هذا التشبث انما هو اوكد السبل الى الهلاك حين يأتي ما لا بد ان يأتي فيموت احدهما ويموت بموته الاخر . وشعر سليمان بالشفقة على هذين العجوزين وبالاشفاق عليهما وهما يودعان بعضهما البعض على ان يلتقيا في « قهوة المدفع » مساء ذلك اليوم . واخذ يتخوف من ان يأتي ذلك اليوم الذي لا يكون له مساء في قهوة المدفع

* * *

ومع ان سليمان كان يعلم ان ذلك اليوم ليس ببعيد الا انه جاء دون سابق انذار ... كان الصديقان قد رجعا ذلك اليوم من الجامع كعادتهما واستسلما للنوم بعد الغداء كعادتهما ايضا ولكن حينما حاول سليمان ان يوقظهما في اواخر النهار لم يفق منهما الا الحاج ابراهيم . اما الشيخ يعقوب فقد استسلم لنوم ابدي . هل كانت القهوة التي تناولها بعد الغداء هي التي اجهدت قلبه فعجلت بموته؟ ام ان اجله قد جاء « فاذا جاء اجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » ؟ مهما يكن الامر فقد توفي ابوه وخلف له هذه المخطوطات ومخطوطة كتاب النجاة ... وخلف ايضا ... الحاج ابراهيم .

وبعد ايام جاءه الحاج ابراهيم

ـ « لقد كان ابوك رحمه الله اعز اصدقائي يا سليمان فلا تتوان في طلب اية مساعدة يمكنني ان اقدمها لك . ماذا تنوي ان تفعل الان ؟ »

ـ « سأحاول بيع هذه المخطوطات بسرعة فانني لا افهمها يا حاج ابراهيم ولن اعرف كيف اتصرف بها . المهم ان احصل على شيء من المال لابدأ به تجارة افهمها . »

ـ « وما هي تجارتك الجديدة ؟ »

ـ « لقد فهمت ان الكتب المدرسية مربحة للغاية . وسأفتح دكانا لبيع الدفاتر والكتب المدرسية . »

ـ « هنا في هذا المخزن ؟! لا اظن ان والدك رحمه الله كان سيرضى عن هذا العمل او يقرك عليه . »

ـ «ولكن ما لي غير هذا من حيلة »

ـ « اذن ساساعدك بان اشتري مخطوطة ابن سينا . سادفع لك خمسين جنيها ثمنا لها . ما رايك ؟»

وقبل سليمان وناول المخطوطة للحاج ابراهيم . فحملها هذا بين يديه وكأنه يحمل كنزا لا يقدر بثمن . واسرع الى بيته ودخل مكتبته وتوجه توا الى خزانة زجاجية صغيرة كان قد اعدها من قبل لمخطوطة ابن سينا فوضعها فيها ثم ابتعد عن الخزانة قليلا ينظر اليها بحب واعجاب . واخذ ينقل الطرف بينها وبين مجموعته الثمينة الاخرى يستعيد في ذهنه تاريخ كل منها وتاريخ شرائها. فاذا بحقيقة غريبة تصدمه . لقد ابتاع كل هذه المخطوطات من صديقه الشيخ يعقوب . واذا به يشعر بشيء من الضعف وكان رجليه لا تستطيعان ان تحملاه . وجلس على كرسي يواجه كنزه الجديد ، ثم اخذ يترحم على الشيخ يعقوب وعلى مخزنه الذي سيصبح مكتبة لبيع الدفاتر والكتب المدرسية ونظر الى مخطوطة ابن سينا من جديد فراى بهاءها وجمالها ينقص ... واحس بغصة في حلقه..

لندن معاوية محمد الدرهلي

الحيرة الخضراء

○

ما حيلتي
والحلو في اضلعي
يقتاتُ حلم الازل الممرع
غذّيته من شفتي منبعي
وبالجناح الاخضر المبدع
جنّحته ... فطار
من مربع، خصب الاساطير، الى بلقع
حتى اذا ناديته ... لم يع !
وقال لي :
« من أنت ؟ يا مدّعي ... »

حلب علي الزيبق
من الاصدقاء